وقوله: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

٣ - الثبات والصبر: ويكشف عنه قوله عز وجل: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [البقرة : ٨٣] .

وقوله ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة :٢٤٦] .

٤- الأمانة و الصدق: وقوله: ﴿ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ﴾ [المائدة:١٣] وعند تأمل هذه النصوص السبعة ستجتمع عندنا أربعة موضوعات أساسية تترجم سلوك الأقلية و سنتناولها في مباحث هي:

١ - النهي عن الفساد .

٢ - الإذعان لأوامر الله وطاعة رسوله ﷺ .

٣ - الثبات و الصبر عند الشدائد .

٤ - الأمانة والصدق وتجنب الخيانة .

* * *

● المبحث الأول : النهي عن الفساد:

النهي عن الفساد ضرورة لاستمرار الحياة وبقاء العمران و أسبابهما، إذ ما يلحق الحياة من فناء أو استئصال إنما سببه ما يشيع فيها من الفساد، ولذلك جعل الله تعالى الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر قاعدة أساسية من قواعد المحافظة على البقاء و النظام .

وللأسف الشديد فإن النهي عن الفساد كان ولا يزال عملاً لا ينهض به إلا القليل من الناس، وهو ما سنراه في النص الآتي : ﴿ **فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ** ﴾ [هود :١١٦-١١٧] معنى الآية: « هلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور و المنكرات و الفساد في الأرض، وقوله ﴿ **إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ أي قد وجد منهم من هذا الضرب قليل لم يكونوا كثيراً وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه، وفجاة نقمته، ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ... وقوله﴿ **وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ** ﴾ [هود :١١٦] أي استمروا على ما هم عليه من المعاصي و المنكرات، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك حتى فاجأهم العذاب ... ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهي ظالمة لنفسها ولم يأت قرية مصلحة بأسه وعذابه قط »(١).

هذه الآية موضوعها الأساس هو الإخبار عن خلو الأمم السابقة التي أهلكها الله من النابهين الذين ينهون عن الفساد إلا قليلاً، وقد جاءت هذه الآية بعد عرض سورة هود لقصص الأقوام و الأنبياء معهم، وكيف تم إهلاكهم وختمت رحلة القصص بقوله تعالى : ﴿ **ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ** ﴾[هود: ١٠٠]، ولاشك أن القرى التي ظلت قائمة هي التي كانت تنهى عن الفساد، أما التي صارت حصيداً فإنها كانت مستخفة بأوامر الله ونواهيه فشملها الفساد في العقيدة و العمل فاستحقت الاستئصال فحُصدت حصدا فصارت إلى العدم ثم الجحيم.

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢ / ٤٦٤ .

و الآية تبين أن الذين كانوا ينهون عن الفساد كانوا قلة قليلة هم الذين أنجاهم الله من العذاب الدنيوي قبل النجاة من العذاب الأخروي ﴿ **فَلَوْلا كَانَ مِن الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ** ﴾ [هود :١١٦] .

فالذين أنجاهم الله هم الصفوة القليلة التي كانت تنهى عن الفساد، إذ تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، أما الأكثرية فكانت على العكس من ذلك، تتبع هواها وتشجع على الفساد ﴿ **وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ** ﴾ [هود :١١٦] فالأكثرية اتبعت أسباب الترف فنسيت رسالة النهي عن المنكر، ﴿ **كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ** ﴾[المائدة:٧٩]، لذلك استحقوا ما استحقوا من الاستئصال، ذلك حال قوم هود، وقوم لوط وقوم شعيب وقوم فرعون الذين وردت قصصهم في السورة نفسها وختمت بهذه الآية التي قدمت التعليل.

وعند تتبع هذه القصص في سورة هود تتبين لنا حقيقة هذه القاعدة السلوكية التي تنص عليها الآية بحيث لا ينهى عن الفساد في الأرض إلا قليل، ولهذا ذهب سيد قطب في تفسيره للآية إلى أنها « تكملة وتعليق على مصارع القرى و القرون، فيشير – السياق– إلى أنه لو كان في هذه القرون أولوا بقية يستبقون لأنفسهم الخير عند الله فينهون عن الفساد في الأرض ويصدون الظالمين عن الظلم لما أخذ تلك القرى بعذاب الاستئصال الذي حل بهم، فإن الله لا يأخذ القرى بالظلم إذا كان أهلها مصلحين، أي إذا كان للمصلحين من أهلها قدرة يصدون بها الظلم و الفساد، إنما كان في هذه القرى قلة من المؤمنين لا نفوذ لهم ولا قوة فأنجاهم الله، وكان فيها كثرة من المترفين وأتباعهم و الخانعين لهم، فأهلك القرى بأهلها الظالمين ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ** ﴾ [هود:١١٧] .

وهذه الإشارة تكشف عن سنة من سنن الله في الأمم، وهي أن الأمة التي

يقع فيها الفساد بتعبيد الناس لغير الله في صورة من صوره فيظهر في وسطها من ينهض لدفعه هي أمم ناجية لا يأخذها الله بالعذاب و التدمير، فأما الأمم التي يظلم فيها الظالمون ويفسد فيها المفسدون، فلا ينهض فيها من يدفع الظلم والفساد، أو يبرز فيها من يستنكر المنكر، ولكن لا يبلغ أن يؤثر في الواقع الفاسد ليغيره فإن سنة الله تحقق عليها؛ إما بهلاك الاستئصال، وإما بهلاك الانحلال والاختلال، ومن هنا تتبين لنا قيمة الأقلية في الحفاظ على الوجود البشري، « فأصحاب الدعوة إلى ربوبية الله وحده وتطهير الأرض من الفساد الذي يصيبها بالدينونة لغيره هم صمام الأمان لاستمرار وجود الأمم والشعوب، وهذا يبرز قيمة كفاح المكافحين لا قرار ربوبية الله وحده، الواقفين للظلم والفساد بكل صوره، إنهم لا يؤدون واجبهم لربهم ولدينهم فحسب، إنما هم يحولون بهذا دون أممهم وغضب الله و استحقاق النكال والضياع »(١) .

وهذه اللفتة اللطيفة التي يشير إليها قطب غاية في الأهمية إذا يحدد بها سر عدم نجاح رسالة الذين ينهون عن المنكر فهم « قلة من المؤمنين لا نفوذ لهم ولا قوة » في مقابل « كثرة من المترفين و أتباعهم والخانعين لهم » فالمؤمنون فوق أنهم قلة فهم مهمَّشون في المجتمع، بحيث لا سلطان لهم على الأغلبية، لافتقارهم لأسباب قوة السلطان، وعلى رأسها المال لأن نفوس العامة في الغالب مريضة تتبع أهل القوة المالية طمعا في أن تنال منها، وقد بين هذه الحقيقة قول الله تعالى: ﴿**قَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ**﴾[يونس:٨٨] ، فالأموال هي التي جرَّت القوم إلى الضلال عن سبيل الله، لذلك دعا عليها أصلا موسى عليه السلام بأن تطمس، لئلا ينشأ عنها ضلال الناس عن الطريق « المستقيم: إما بالإغراء الذي يحدثه مظهر النعمة في نفوس الآخرين، وإما بالقوة التي يمنحها المال لأصحابه

---

(١) في ظلال القرآن ٤ /١٢ /١٩٣٢-١٩٣٣ .

فيجعلهم قادرين على إذلال الآخرين أو إغوائهم، ووجود النعمة في أيدي المفسدين لاشك يزعزع كثيرا من القلوب التي لا يبلغ من يقينها بالله أن تدرك أن هذه النعمة ابتلاء واختبار ... وموسى يتحدث هنا عن الواقع المشهود في عامة الناس ويطلب لوقف هذا الإخلال والتجريد القوة الباغية المقلة من وسائل البغي و الإغراء أن يطمس الله على هذه الأموال بتدميرها والذهاب بها بحيث لا ينتفع بها أصحابها » (١) .

وربما يبين ذلك أكثر قول الله تعالى قبل ذلك ﴿ **فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ** ﴾[يونس :٨٤] .

فالذين آمنوا قلة قليلة من الذرية الذين لم يتحكم حب المال بعد في قلوبهم، ولم يستول عليهم بشكل كلي الخوف من غطرسة وجبروت فرعون، وهؤلاء بالتأكيد لا نفوذ لهم ولا قوة، بل « إن هؤلاء الفتيان كان يخشى من فتنتهم وردهم عن اتباع موسى خوفا من فرعون وتأثير كبار قومهم ذوي المصالح عند أصحاب السلطان والأذلاء الذين يلوذون بكل صاحب سلطة » (٢) .

ويرى المراغي أن « العقول السليمة كافية لفهم ما في دعوة الرسل من الخير والصلاح، . . .لو لم يخش هداتها الافتتان بالترف والنعيم بدلا من القصد والاعتدال فيه وشكر المنعم عليه . . .، لقد هدت التجارب إلى أن الترف هو الباعث على الفسوق والعصيان و الظلم والإجرام، ويظهر ذلك بديئا في الرؤساء والسادة ومنهم تنتقل إلى الدهماء و العامة فيكون ذلك سببا في الهلاك والاستئصال أو في فقد العزة والاستغلال وتلك هي سنة الله في خلقه »(٣) .

وعلى العموم فإن قول الله تعالى : ﴿ **فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا**

---

(١) في ظلال القرآن ٣ / ١١ / ١٨١٧

(٢) في ظلال القرآن ٣ / ١١ / ١٨١٥

(٣) تفسير المراغي : ١٢ / ٩٨

بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود :١١٦-١١٧] .

يحدد المسائل التالية :

١ – القلة القليلة فقط هي التي تنهى عن الفساد في الأرض وهي صمام الأمان للأمم والشعوب.

٢ – سبب كون الأكثرية لا تنهى عن الفساد هو اتباع الظالمين و الكفار الترف و أسبابه.

٣ – إهلاك الأمم و الشعوب يتم بسبب الفساد في الأرض استئصالا أو إذلالاً و اختلالاً.

والقرآن الكريم يقدم لنا صورة عن العلاقة القائمة بين ثلاثة أطراف، مفسدون، وناهون عن الفساد، و مثبطون لمن ينهى عن الفساد ولكنهم لا يفسدون، بل يبقون على شبه الحياد فيقول تعالى :﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف :١٦٤-١٦٦]

ففي الآيات ثلاث فرق؛ فرقة مثبطة لأهل الدعوة والنهي عن المنكر ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ [الأعراف :١٦٤] وهذه الفئة سيسكت القرآن بشأنها عند الاستئصال، فلا يذكر كيف كانت نهايتها لأن السياق العام يبين أنها وحدها الفرقة الناجية، وفرقة مفسدة وأكثر من ذلك لا تنتهي عن الفساد إذا وُعظت، وإنما تستمر في الفسق

والفجور، وهي التي يصرح القرآن باستئصالها، إذ مسخها مسخًا: ﴿ **وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ** ﴾[الأعراف:١٦٦]، والفرقة الثالثة هي الفرقة التي تمثل الأقلية التي تنهى عن الفساد في الأرض وتقدم لمن يلومها عن النهي الأسباب الداعية لذلك، متمثلة في سببين: أن يكون ذلك لهم عذراً عند الله في قيامهم بواجب النهي عن المنكر، ورجاء أن يكون في المفسدين من له قلب لا يزال فيه نبض حياة فيسمع نهيهم ويتعظ، ﴿ **قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** ﴾[الأعراف:١٦٤] وهذه الفئة الثالثة التي قامت بواجب النصح وواجب تقديم الأسباب لمن يثبط عزائمهم، هي التي يصرح القرآن بنجاتها ﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا** ﴾[الأعراف:١٦٥]، وهذه الفرقة الثالثة تمثل الأقلية التي سيمدحها القرآن بعد ذلك بقوله تعالى: ﴿ **مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ** ﴾[الأعراف: ١٦٨] ، وقوله: ﴿ **وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ** ﴾[الأعراف:١٥٩]، وهذه سنة الله في الخلق يوجد فيهم دائما ﴿ **أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ** ﴾[هود:١١٦] لكنهم دائما قليلون .

* * *

● **المبحث الثاني : الإذعان لأوامر الله وطاعة رسوله:**

طاعة الله ورسوله، والإذعان لأوامر المولى تبارك وتعالى صفة الأتقياء من عباد الله، وهي صفة تتدرج مع العباد لتبلغ الذروة عند الأنبياء و الرسل عليهم الصلاة والسلام، ولكن لا يخلو السلوك البشري من بعض النماذج من الصالحين والصديقين الذين يمثلون الأقلية التي تمتثل لأوامر الله و نواهيه كل الامتثال، وربما بلغوا ما يشبه درجة الملائكة التي قال الله فيها ﴿ **لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ**